Coptology

Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

تجسد الكلمة

رسالة إلهية إنسانية للكون المضطرب

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٠

www.coptology.org

الكلمة – اللوغوس، الأزلي الذي وضع في كل كائنٍ حي أو مادي "نعمة"، أو "ختم" صلاحه، قاد الكل: الأفلاك التي نراها، وتلك التي لا نراها، المنظورات بكل أنواعها وأحجامها، وتنوع واختلاف حياتها، اتحد بالطبيعة الإنسانية "سكن بيننا"، أو "حل فينا" (يو ١: ١٤).

هذا الاتحاد والسكنى هو رسالة لم تكتب على ورق، ولم تكن يوماً خطاباً دينياً. حقاً كتب عنه الذين "لمسوه بأيديهم"، وسمعوه واشتركوا بكل حواسهم: النظر والسمع واللمس والتذوق ... فقد عاش معهم: سمعوه – نظروه – لمسوه – تذوقوا طعام الخلود في العلية – أحبوه – أطاعوه – عثروا فيه – تركوه – خانوه، بل خانه اثنين منهم على وجه التحديد، انتحر أحدهم والآخر عاد إليه، فرسموا بذلك ملامح العلاقة التاريخية لما ستكون عليه علاقة الكلمة المتجسد بكل الذين يأتون إليه ...

الله الخالق لا يعلن عن ذاته في كتب. وحتى العهد القديم ليس كتاباً. خدعتنا النسخة المطبوعة في مجلد واحد ضمت التوراة – الأسفار التاريخية – الأنبياء – كتب الحكمة، في حين أنها – كلها معاً – أنوار متعددة وعلامات على طريق الإعلان الأخير: مجيء الكلمة إلينا.

نحن أسرى الكتب، وأسرى المعرفة المطبوعة والمسموعة ... نظن أن التقدم هو بالمعرفة وحدها، أو بتطور اللغة، أو بكثرة الأبحاث ... أبداً. الإنسان يسبق كل الكتب، بل حتى الوجود – كما يقول أثناسيوس العظيم – سبق الكلمات، فالحياة تسبق كل تعريف (ضد الأريوسيين ٢: ٢).

هل خلقت الكتب العقل؟

صحيح أن الدراسات طورت الفكر فعلاً، نقلت الإنسان من الكهف إلى الأبراج السكنية العالية، ومن الجمل إلى السيارة والطائرة، وأصبحت الشوارع العريضة تعج بمئات السيارات، وانتقلت الزهور بالطائرات من بلاد ذات طقس ربيعي إلى بلاد

تنام تحت الثلوج، وها هو ذا التليفون المحمول يرافقنا في كل انتقالاتنا أينما ذهبنا ... لكن،

هل انعدمت الجرائم؟

هل نمت المحبة؟

هل تحسنت العلاقات بين الشعوب، أو حتى بين أفراد الشعب الواحد؟

صحيح أن الحضارة المادية نمت، وتوسع العمران المدني، ولكن:

هل نمت الثقة بين الناس؟

هل نضجت العلاقات فأصبح الحوار بديلاً عن السلاح؟

هل استطاعت الشعوب المظلومة أن تجد من يسمع لها في أكبر المحافل الدولية، رغم تقدم كل وسائل الاتصالات؟

إن التقدم المادي والعمراني، وكل ما هو تحت سيطرة الحواس الخمسة ظاهر. لكن الظاهر أيضاً هو التراجع عن المحبة والألفة. وغابت الشفافية، وانتشر العنف في كل مستويات الحياة.

انفجرت ثورة المعلومات، هذا صحيح، ولكن تطور معها السرقات الأدبية والمادية.

غزا الإنسان الفضاء وسار على القمر، هذا صحيح، لكن الصحيح أيضاً أن ملايين البشر يموتون تحت وطأة الجوع والأمراض ...

هذه الصورة القاتمة لا تحتاج إلى فكر، بل إلى دم الشهادة. ولا تحتاج إلى مقالات، بل إلى حقٍ متجسد، إلى أناجيل تسير على الأقدام، وتحيا حياةً بشريةً بيننا، تحتاج إلى تجسد للمحبة والقداسة والشهادة.

نريد شهادةً للتجسد لا للفكر، فقد صار الفكر سهلاً يباع، بل أصبح من السهل الحصول على مئات من الكتب على خلية من السيليكون، في مقابل ذلك أصبح من الصعب أن نجد من يحيا للحق ويجسد الحق في حياته، فلا يصبح الحق كلمة تقال، بل حياةً متجسدةً.

الشخص والنظريات والأفكار

وضع التجسد الإنسان فوق السبت (مت ١٢: ٥)[١]، بل جعله أعظم من هيكل سليمان (مت ١٢: ٤٢)[٢]، وصار الإنسان فوق الناموس أو الشريعة؛ لأن وصية السبت كُسِرَت بدفن الرب في القبر يوم السبت. وعندما رفض الرب نفسه أن يُصدر حكم الرجم على الزانية التي أمسكت وهي تزني، فقد كسر الناموس أيضاً، ولكن لم يكن الهدف هو مجرد كسر الناموس، بل الإعلان عن حقيقة الإنجيل، وهي أن الناموس لا يخلِّص الإنسانية من الدينونة. وقد استوعب الرسول بولس هذه الحقيقة، فجاء يدق بكل قوة أجراس الفرح: لقد جاء التبرير، وإطلاق سراح الخطاة وكل الذين وقعوا تحت أحكام الناموس. جاء المخلص "بر الله نفسه" (رو ٣: ٢١)، فيسوع هو "البر"، والفداء والقداسة (١ كور ١: ٣٠)[٣]، والقيامة والحياة (يو ١١: ٢٥)[٤]. لقد نقلنا إلى ملكوت ابن محبة الآب (كولوسي ١: ١٣)، ومن الظلمة إلى النور (كولوسي ١: ١٣)، ومن الدينونة إلى الخلاص[٥].

هذا التحول لم يكن نقلةً فكريةً اخترعها العقل البشري، بل واضع الشريعة نفسه تجسد، فقد أرسل الله ابنه في ملء الزمان مولوداً تحت أحكام الشريعة لكي يفدي الذين تحت أحكام الشريعة لكي ننال التبني (راجع غلاطية ٤: ٤). وختم الله ختم التبني بعطية هي أعظم عطايا الله قاطبةً، فقد أعطانا روحه القدوس (غل ٤: ٤ – ٥)[٦]، أعطانا حياته الذاتية أي روحه القدوس، وصرنا بذلك ورثة الله ووارثون مع

---

(١) "أَوَ مَا قَرَأْتُمْ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي السَّبْتِ فِي الْهَيْكَلِ يُدَنِّسُونَ السَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ؟. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَهُنَا أَعْظَمَ مِنَ الْهَيْكَلِ!. فَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لَا ذَبِيحَةً لَمَا حَكَمْتُمْ عَلَى الأَبْرِيَاءِ!. فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضاً».

(٢) "مَلِكَةُ التَّيْمَنِ سَتَقُومُ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ لأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ هَهُنَا!".

(٣) "وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرّاً وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً".

(٤) "قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا".

(٥) "شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ، الَّذِي أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا".

(٦) "ثُمَّ بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءٌ، أَرْسَلَ اللهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِخاً: «يَا أَبَا الآبُ». إِذاً لَسْتَ بَعْدُ عَبْداً بَلِ ابْناً، وَإِنْ

المسيح (رو ٨: ١٧)[١].

لقد دخل الكلمة المتجسد حياتنا الإنسانية، ليس كفكرة، ولا كنظرية، ولا كقانون، أو شريعة، بل كشخص حي جاء بالحياة، ووحَّد الحياةَ بجسده الخاص الذي أخذه من العذراء مريم والدة الإله.

يظل شخص الكلمة، أو حسب لغة الكنيسة "الأقنوم" حاضراً معنا ليس بما يقوله من أفكار أو يعلنه من مبادئ أو حتى تعليم، فذلك النوع من الحضور هو حضور في عقل من يفكر ويدرس التعليم، ويلقي خطاباً عن الكلمة المتجسد.

بالطبع لدينا في التاريخ الكنسي من ارتاد ولا زال يرتاد هذا المجال، أي مجال العلاقة العقلية مع الكلمة المتجسد الذي يُدرس في مناهج "الخريستولوجي"، والذي يقدَّم في عظات تنال التصفيق والإعجاب، أو في كتب وأبحاث جيدة مثيرة للجدل أحياناً ... هذه سمة من سمات اللاهوت المسيحي، لا تزال تجمع العديد من رجال أفذاذ ومفكرين عظماء ... هؤلاء نالوا استنارةً عقليةً، فأناروا عقل الإنسانية. هذا الحضور هو انعكاس نور الكلمة المتجسد على صفحات التاريخ والفكر الإنساني. ولكن هذا هو أدنى وأقل درجات الحضور الإلهي للكلمة المتجسد.

فما هو المقصود بالحضور الإلهي للكلمة المتجسد؟

نحن نقصد ما هو أعظم من الحضور الذي تعبِّر عنه الأفكار والكلمات وتصبح معه كل النظريات مجرد إشارات على الطريق الأعظم والأعلى.

إن ما نقصده تحديداً هو **استعلان الحضور المتجسد للكلمة.**

لقد جاء الكلمة في الجسد لكي يبقى في الجسد متحداً به اتحاداً لا يقبل الانقسام؛ لأن المحبة لا تقبل الانقسام. إن حضور المحبة المتجسد هو حضور شخصي أو أقنومي، يعلو على كل ما يمكن أن يقال من ألفاظ وعبارات؛ لذلك وهب الآبُ الروح القدس "روح المحبة"؛ لكي تصبح المحبة هي أساس العلاقة "الحضورية" مع الحاضر دائماً في الجسد.

كُنْتَ ابْناً فَوَارِثٌ لِلَّهِ بِالْمَسِيحِ".

(١) "فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَداً فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضاً وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضاً مَعَهُ".

المحبة هي قبول ورغبة وسعي متواصل للاتحاد بالآخر. والمحبة لا تقبل بأقل من الاتحاد. وعندما دافع الآباء في القرن الخامس عن الإيمان ضد النسطورية ونادوا بالاتحاد الأقنومي للكلمة المتجسد، لم يكن ذلك مجرد اعتراض على فكر نسطور، رغم ضرورته، بل كان حفاظاً على بقاء ودوام المحبة الحقيقية التي لم تقبل، أو تتحد بفكرة اسمها "الناسوت"، بل قبلت "الإنسان" نفسه واتحدت به. لذا لا يجب أن نفشل في استيعاب تعبير الآباء: جسده الخاص، أو جسده الذاتي *Idios* – وهي كلمة كلاسيكية معروفة في الآداب اليونانية السابقة على عصر المسيحية وتعني ما خاص، أو ما صار من خصائص شخصية شخص ما – لأن الجسد أصبح من خصائص الكلمة المتجسد *Character* ولذلك يوصف هذا الجسد في القداسات القبطية كلها بأنه "الجسد المحيي". فقد نال هذا الجسد الحياة من الكلمة[١].

وبالطبع كان اعتراض اليهود على خطاب الرب في يوحنا (ص ٦) كيف يعطينا جسده؟ وكيف يهب هذا الجسد الحياة؟ هذا الاعتراض صحيح بيولوجياً، وتجديف لاهوتياً؛ لأنه ليس جسدُ بشرٍ مثلنا خاضع للموت، بل هو "جسد الحياة"[٢]. جسد من غلب الموت وذبحه، بل قتل الشيطان نفسه[٣].

وعندما يصبح الجسد من خصائص الكلمة، ويصبح هذا الجسد بالاتحاد جسداً محيياً، فهو هنا يُعيد – الكلمة – تكوين الدورة البيولوجية الإنسانية: الولادة – النمو – الموت، إلى دورة لاهوتية تبدأ بالخلق من جديد محل الولادة البيولوجية، ثم النمو الذي صار صيرورةً صاعدة نحو المسيح نفسه. أمَّا الموت الذي أُبيد بموت الرب، فقد صار بداية حياة جديدة بالقيامة، أو حسب عبارات رسول الرب بولس والعظيم أثناسيوس هو زرعٌ مثل زرع بذور تلقى في الأرض لكي تنمو (١ كور ١٥: ٣٥ – ٣٨ – تجسد الكلمة ٢١: ١ – ٢)[٤].

---

(١) راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي حيث يقول إن الكلمة أحيا الجسد. (١٧: ٢، ١٧: ٦).

(٢) راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس ٢١: ٤ – ٥، ٧.

(٣) راجع تجسد الكلمة ف ٢٧ كله على سبيل المثال.

(٤) "لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «كَيْفَ يُقَامُ الأَمْوَاتُ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَأْتُونَ؟». يَا غَبِيُّ! الَّذِي تَزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ الْبَوَاقِي. وَلَكِنَّ اللهَ

وهنا يجب علينا أن نتوقف أمام ثلاثة حقائق نحرص على ألاَّ ننساها:

أولاً: لا يوجد كائن ذاتي الحياة، له حياة في ذاته، نابعة منه هو وتحت سلطانه. الآب له حياة في ذاته وقد أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته (يو ٥: ٢٦). إنها الولادة الأزلية، وهي حياةٌ لحياة. وحياة الابن في ذاته تعني أنه ليس مخلوقاً، بل هو الإله الابن الوحيد حسب الترجمة القبطية لنص يوحنا.

ثانياً: الكائنات تحيا وتنال الحياة كهبة، فهي لا تملك حياتها ولا تستطيع أن تبقى في الحياة بالإرادة الخاصة بها، فالإرادة المخلوقة هي مثل وجود الكائن نفسه لا تملك "سلطان الحياة"، والموت الطبيعي هو عدم قدرة الطبيعة المخلوقة على البقاء بالإرادة أو بالقدرة.

ثالثاً: بما أن الوجود والحياة هبة من الله، فهذه الهبة تحدد علاقة معينة مع الواهب، هي علاقة دائمة؛ لأن الإنسان لم يُخلق للموت، بل خُلق للحياة. أما الموت فهو دخيل "دخل الموت مع الخطية" (رو ٥: ١٢). الموت فقدانٌ لهبة الحياة، حيث يصبح الوجود الإنساني "مفرغاً" من الحياة، وهو وجود يوصف في المزمور بأنه وجود "أشباح"، أو "خيالات" (مز ٨٨: ١٠)، هو وجود في "الحفرة"، أو الشيئول ***Sheol*** في العبرية.

الوجود هو نعمة، وهو حياة حسب نعمة الله، وهي حياة جعلت الله يخلق الإنسان "حسب صورته" (تك ١: ٢٦). وعندما خلق الله الإنسان، أراد الله أن يبقى الإنسان في شركة، ولكن جاء الموت مع الخطية ليهدم هذه الشركة ويقضي على أهم ما يميِّز الوجود والحياة الإنسانية، وهو الحياة "حسب صورة الله".

كان الإنسان هو الذي صنع لنفسه هذه المأساة. وبالرغم من أن الله سبق وأن حذَّر الإنسان من الموت، لكن تحذير المحبة ضاع في خضم الاهتمام المفرط بالذات، وهو طلب الإلوهة الذاتية، وليس البقاء في الإلوهة كنعمة مصدرها عطية الصورة والمثال.

يُعْطِيهَا جِسْماً كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ.

الدورة الإلهية الإنسانية لتجديد الإنسان[١]

لقد حبلت العذراء بالكلمة، فتجسد. بدأ الكلمة حيث يبدأ الإنسان بيولوجياً، ولكنه لم يأت ليثبِّت بقاء الدورة البيولوجية للإنسان. فالقديس غريغوريوس النزيزي يصف الحبل بالروح القدس بأنه "انحلال ناموس الطبيعة"؛ وذلك لأن الخالق نفسه جاء لكي يضع ناموساً آخر، و"خلقة" أخرى ليست من العدم، بل تبدأ من داخل ومن خصوصية الطبيعة القديمة، لكن لا لكي تلد الطبيعة القديمة الخاضعة للموت من جديد، فهذا مستحيل. لذلك كان انحلال ناموس أو قانون الطبيعة ضرورياً لكي يفتح المجال للجديد. هنا يبرز الفرق بين الغنوصية والأرثوذكسية، فالغنوصية تؤكد على "إبادة القديم"، أمَّا الأرثوذكسية فهي تبشر بـ "تجديد القديم".

حدود الطبيعة، أو حدود الخلقة الأولى هي إن العدم هو الأصل، والموت هو النهاية. أما مجد الخلقة الجديدة، فهو التبني بالروح القدس والميراث الأبدي في مجد الثالوث. لا يوجد مجال للمقارنة بين الخلقة الأولى التي آدم الأول رأسها، والخلقة الجديدة التي رأسها المسيح آدم الأخير.

اختلاط الأسماء

جلب اختلاط الأسماء الكثير من الفوضى الروحية والفكرية، فعندما نقول: "السنة الطقسية"، أو "المناسبات الكنسية"، أو حتى "الأعياد الكنسية"، فإن هذه الأسماء تمحو ثلاثة أشياء:

أولاً: تحذف الظهور الإلهي المحيي، ويتحول العيد أو المناسبة إلى إحياء ذكرى لا استعلان الرب يسوع في الليتورجية. وعندما نصف الصلاة بأنها "عبادة"، تذوب في ثنايا هذه الكلمة عطية "التبني" ولا ينتبه الوعي إلى حقيقة تغيب، بل هي غائبة بالفعل من لاهوت العصر الوسيط الأوربي والقبطي، وهي أن الصلاة شركة في حياة المسيح.

---

(١) أخذت كلمة "دورة" من "دورة الحمل"، ولا زلت أبحث عن أصلها القبطي؛ لأن الأصل اليوناني هو "تقدمة"، وهو الفعل "قدم". و"تقدمة" وردت في السبعينية، كما وردت عدة مرات في كتاب "تجسد الكلمة". فقد "قدَّم" الكلمة ذاته للآب لكي يقدمه لنا الآب؛ لأنه هو الخبز الحي النازل من عند الآب.

ثانياً: حلت كلمة "قداس"، وهي سريانية الأصل محل كلمة "ليتورجية"، فضاع منا خدمة الرب يسوع، فهو خادم الأسرار كلها لأن كل الأسرار هي منه وتُعطى لنا لكي تعيدنا إلى الشركة.

عندما تختلط الأسماء، يضيع الاستعلان الإلهي، فالرب يخدمنا نحن؛ لأن خدمة الرب هي استعلان ملكه، فهو "الملك" الذي يخدم، وليس الملك الذي يجلس في انتظار خدمة الرعية. ولذلك لقب ابن الله الصحيح في صلواتنا هو: "ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح"، وكل اسم من هذه الأسماء له دلالة لاهوتية،

فهو الرب؛ لأنه غلب الموت فصار رباً بالفعل[١].

وهو إلهنا؛ لأن إلوهيته قد أُعلنت في تجسده وبالأعمال التي عملها في الجسد.

وهو ملكنا؛ لأنه اشترانا وصار يملك كل ما في حياتنا ويسود عليها كرب.

ثالثاً: تحولت كلمة "طقس" إلى مجرد "ترتيب". ولكن الترتيب في الأرثوذكسية ليس هو مجرد نظام وُضِعَ من أجل "العبادة"، فالترتيب هو ما يُقدَّم حسب التدبير وما نقبله نحن في ترتيب يهدف إلى الوصول إلى غاية التدبير، وهو قبول النعمة، وحلول الروح القدس، والاتحاد بالمسيح الرب، وعودتنا إلى الشركة في حياة الآب[٢].

وهنا ندرك أن الدورة الإلهية الإنسانية لتجديد الإنسان، أو بتعبير آخر دورة الحياة الجديدة "مستعلنة" في الليتورجيا؛ لأن بداية الحياة الجديدة هي في رحم العذراء، أي تلك الحياة الجديدة التي جاء بها الله الكلمة من عند الآب (١ يو ١: ١ – ٣)[٣]، ونمت في يسوع الذي حملها في أقنومه الإلهي لكي تصوم وتهزم الشيطان في البرية – بعد أن مُسِحَت بالروح القدس – لكي يدخل الروح القدس شريكاً في "تكوين

---

(١) "فَلْيَعْلَمْ يَقِيناً جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ رَبّاً وَمَسِيحاً" (أع ٢: ٣٦). راجع أيضاً شرح القديس أثناسيوس الرسولي لهذا النص: ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، الفصل الخامس عشر، الطبعة الثالثة الصادرة عن المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، ابريل ٢٠٠٤، ص ٢٩ – ٤١.

(٢) أنا أدرك مدى صعوبة هذه الأمور على القارئ، ولكن عدم طرحها يعني بقاء الضعف الروحي، بل أقول بكل أسف "العمي".

(٣) "فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا".

الإنسان الجديد" (أف ٢: ١٥)[١]، ثم يدخل معقل الموت والقبر ويهزم ويدوس الفساد والدينونة (كولوسي ٢: ١٤)، ونحن الأموات بالذنوب والخطايا أحيانا معه (كولوسي ٢: ١٣)[٢]، لذا تقوم في عدم فساد متوجةٌ بالخلود وتجلس عن يمين الآب، وهو الارتفاع والمجد الذي وصل إليه آدم الجديد والأخير؛ لأنه "أخلى ذاته ... ولذلك رفَّعَهُ الآب وأعطاه اسماً فوق كل اسمٍ"، وصار الاعتراف به رباً هو لمجد الله الآب (فيلبي ٢: ٩)، ونالت الإنسانية فيه المجد الذي طلبه الرب نفسه في يو ١٧: ٢٢، فصار الاعتراف بيسوع رباً هو مجد الإنسانية الجديدة أيضاً "وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ" (يو ١٧: ٢٢). وصار الاعتراف بيسوع رباً هو اعتراف بالمجد الذي أخذناه فيه، ذلك المجد الأبدي الذي لا يضمحل.

من هذه الدورة نبعت كل الأسرار، أسرار اتحادنا بالثالوث في الابن بالروح القدس، حيث يتناغم عمل الروح القدس وشركته في البداية في الميلاد وفي المسحة معاً حتى يعمل مع الابن شريكاً في خلاص الإنسان[٣]. فقد نبعت البداية الجديدة في بيت لحم، وامتدت لتأخذ مسحة الأردن في المعمودية، وتمم عملها موت الرب المحيي على الصليب بالقيامة.

سجدت اللغة إلى الكلمة المتجسد[٤]

اللغة هي الأداة الإنسانية التي وُهِبَت لآدم وحواء لكي يحقق بها الإنسان سيادته على الكون، ونموه الروحي نحو الكلمة صورة الآب؛ لأنه خُلِقَ على صورة الكلمة.

ولكن التجسد جاء بلغة جديدة، وهذه اللغة ليست مفردات لفظية جديدة،

---

(١) "لِكَيْ يَخْلُقَ الاثْنَيْنِ فِي نَفْسِهِ إِنْسَاناً وَاحِداً جَدِيداً، صَانِعاً سَلاَماً".

(٢) "وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فِي الْخَطَايَا وَغَلَفِ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحاً لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا، إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدّاً لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّراً إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ. إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَاراً، ظَافِراً بِهِمْ فِيهِ".

(٣) سوف ندرس باقي الأسرار في مناسبة أخرى.

(٤) العبارة نقلاً عن مار إفرام السرياني.

ولكن التجسد أضفى على المفردات معاني جديدة، وهكذا صار "إخلاء الـــذات، أو وضع الذات" (فيلبي ٢: ٦) هو لغة المحبة. وصارت الطاعة حتى الموت هي طاعة المحبة، فلم تعد الطاعة مجرد "طاعة"، ولم يعد "الموت"، هو ذلك العنصر الذي دخـــل مـــع الخطية إلى العالم (رو ٥: ١٢)، وصار بالتالي مرادفاً للخطية، بـــل تحـــول المـــوت — "بسبب موت الرب المحيي" — إلى قوة تهدم وتقلع جذر الخطية. وهكذا لم يعد "حجد الذات" هو ملاشاة الذات حسب النسك الوثني في الهندوكية والبوذية ***No - Self*** بل صار خطوةً نحو محبة تقوم على الشركة؛ وبالتالي لم يعد لدينا تمييز لفظي بين "إخـــلاء الذات"، و"جحد الذات"، لأن الحركة واحدة في المحبة، وهكذا لم يعد لدينا النســـك الذي يتم فيه "إعدام الشخص"، بل "خلق جديد للقديم".

هذا هو تطويع اللغة للتجسد، أو "سجود اللغة للكلمة المتجسد"، أي تصبح اللغة تحت قدمي "الكلمة" لكي تأخذ معانٍ جديدة لم تكـــن معروفـــة أو غائبـــة، أو عجزت عن إعلانها الكلمات.

لقد أعاد التجسد تحديد المعاني على أسس جديدة:

أولاً: هناك علاقة بين الكلمة الخالق والخليقة تسبق نطق الإنسان وقدرته على التعبير بما يفهم ويعرف بحيث ينبني هذا التعبير على تلك العلاقـــة: "أعطيـــتني علـــم معرفتك"، أي عطية النطق بالإلهيات ... وهنا – بالذات في الأرثوذكســـية – تســـبق العلاقة، أي علاقة الشركة التي تعود إلى التدبير الأزلي السابق على خلق العالم (أف ١: ٣ – ١٤)[١] كل المصطلحات اللاهوتية. العلاقة هنا هي التي تحدد المعنى، وهـــو مـــا يختلف تماماً مع الفوضى التي أثارتها ثرثرة الأريوسية عن "أبي أعظم مني"، وهي الثرثرة

---

(١) "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ. كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ. إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ، الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ، الَّتِي أَجْزَلَهَا لَنَا بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَفِطْنَةٍ. إِذْ عَرَّفَنَا بِسِرِّ مَشِيئَتِهِ، حَسَبَ مَسَرَّتِهِ الَّتِي قَصَدَهَا فِي نَفْسِهِ. لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، فِي ذَاكَ الَّذِي فِيهِ أَيْضاً نِلْنَا نَصِيباً، مُعَيَّنِينَ سَابِقاً حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ؛ لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ سَبَقَ رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ، الَّذِي فِيهِ أَيْضاً أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذِي فِيهِ أَيْضاً إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ، الَّذِي هُوَ عَرْبُونُ مِيرَاثِنَا، لِفِدَاءِ الْمُقْتَنَى، لِمَدْحِ مَجْدِهِ".

التي ورثها عن الأريوسية شهود يهوه.

إن عظمة الآب هي في إرسالية الابن الوحيد، وعظمة الآب هي في مجيء الابن لكي يعلن محبة الآب ويعطي الروح القدس. وحتى لو أخذنا بقواعد اللغة حيث تستخدم كلمة "أعظم" للمقارنة، فالمقارنة في إعلان المحبة لا تجعل الابن المتجسد أقل من الآب، فليس في المحبة الواحدة أقل وأعظم، وإنما عظمة الآب هي في أنه هو غاية استعلان يسوع المسيح الابن. هي في اعتراف الكل بأن يسوع هو ربٌ لمجد الله الآب (فيلبي ٢: ١١)، وهي هنا العظمة التي سوف ننتهي إليها جميعاً في الدهر الآتي حيث نكون مع الابن في حضن الآب (يو ١: ١٨)؛ لأنه جاء وأخبرنا بهذه البشارة الفائقة.

ولو أن أريوس الذي درس الفلسفة اليونانية، أدرك أن صيغة "أفعل التفضيل" في عبارة الرب "أبي أعظم مني" قد تَغيَّر معناها بسبب التجسد، لبقي في شركة الكنيسة. ولأن التجسد جاء، صارت أفعل التفضيل خاصة بتفضيل ما هو أبدي على ما هو زماني، ما هو سمائي على ما هو أرضي. وعندما "وحَّد" تجسد رب المجد بين المنظور وغير المنظور، لم يعد غير المنظور أعظم، بل صار غير المنظور هو السر الذي يُعلن إلى أن يحين زمان انعتاق الخليقة (رو ٨: ٢١)، عندئذٍ يظهر كاملاً.

وفي تجسد الابن الوحيد جاء تفضيل الرب على كل شيء هو بداية حياة التلمذة التي اخبر بها الرب تلاميذه ورسله القديسين.

ثانياً: إذا كانت العلاقة تسبق الكلمات والألفاظ، والإنسان يسبق كل لفظ، صار الشرح الصحيح الأرثوذكسي للأسفار هو الشرح الذي ينبني على الواقع الجديد، وهو تجسد الكلمة، تجسد مَن هو الحياة، فالحياة لا تؤخذ من الألفاظ، ولذلك قال الرب عن تجسده وإعلان الحياة: "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة"، ليس لأنه يشير إلى عطية الحياة، بل لأن الإشارة، أي الكلمة، لم تعد غريبة وخارجة عن الحياة مثل علامات المرور، أو العلامات الجديدة التي نراها في شبكة المعلومات، وهي تلك الإشارات والعلامات التي اتفق عليها البشر، وهذا مطلوب وجيد، لكن اللفظ الجديد نابع من ذات حياة الابن الكلمة الذي نطق بالحياة فقال: "أنا هو القيامة والحياة"، فلا ثنائية بالمرة بين الكلمة الابن، وكلمة الإعلان عن يسوع؛ لأنها لفظٌ نابعٌ أو آتٍ من

حياة الابن الكلمة، لكن اللفظ ليس هو ابن الله ذاته؛ لأن ثنائية المعرفة واختلاط الخير بالشر، وفوضى المعرفة التي حاول اليونانيون منذ أرسطو ولا تزال المحاولات مستمرة في علوم "الألسنة"، وصفها على قواعد المنطق واللغة، هي سبب الفوضى الفكرية والتخبط الذي نراه في كتابات معاصرة تقوم على أساس الفصل.

إن "كلمة الله حية وفعالة" (عب ٤: ١٢)، ليس لأن لها وجود مستقل، بل لأنها مطر الروح القدس الذي يترل في حياتنا العقلية، ولا يعود فارغاً، بل يقودنا إلى مصدر الحياة، الروح الحي، الأقنوم "الناطق في الأنبياء" بالحياة (راجع أشعياء ٥٥: ١١).

وهكذا يصبح السؤال عن كلمة الله في الكتاب المقدس، وكلمة الآب ربنا يسوع المسيح وما إذا كانا واحداً، هو ثمرة ثنائية معرفة الخير والشر. والجواب هو إن من يتصور وجوداً اسمه "كلمة الله" لا يعرف أن هذا الوجود له ينبوع هو روح الله، وإن فصل "كلمة الله" عن الينبوع هو ما تريده الخطية فينا لكي نتحول من تلاميذ إلى قضاة يحاكمون كلمة الله على أساس المنطق وفلسفة اللغة والدراسات اللغوية التي إذا حاول أحد أن يُخضع لها كلمات الكتاب المقدس، فإن العلاقة الإلهية – الإنسانية التي تسبق الكلمات تهرب منه ولا يجد أمامه إلاَّ قواعد اللغة والكلمات، وهكذا يعود إلى ثرثرة الأريوسيين.

ثالثاً: علينا أن نتعلم كيف يسجد الفهم أو الإدراك للكلمة المتجسد؛ لكي تسجد للكلمة المتجسد كل لغات الأرض، وهو ما عُبِّرَ عنه نبوياً بـ "الشعوب والقبائل والألسنة التي تسبح الرب"؛ ولا يعني هذا التسبيح مجرد تنوع اللغات، بل قبول استعلان الثالوث في الابن بالروح القدس.

لكن في الزمان الحاضر لنقبل ما هو ثابت في تعليم الآباء القديسين، وهو:

١– التدبير صالح، وهو بشارة خلاص لمن يريد الحياة والشركة في الله الثالوث، وهو الذي يجب أن يحكم شرح الأسفار المقدسة برد كل استعلانات التدبير إلى حياة واحدة للثالوث؛ لأن التجسد والصلب والقيامة لم تهدم أو تلاشي وحدة جوهر أو وحدة حياة الثالوث. وكل ما قاله الرب يجب أن نرده إلى علاقته الأزلية مع

الآب رغم إعلانه في الزمان، طالما أنه يعلن التدبير وإعادة الإنسان إلى الشركة.

٢– إن ما يبدو وكأنه "تناقض" في عبارات وردت في الأناجيل الثلاثة – متى – مرقس – لوقا، أو عبارات وردت بشكل مختلف أو ألفاظ مختلفة، يجب أن يُستوعَب في نور العلاقة الجديدة التي جاء بها الرب والتي لم تشيَّد على ألفاظ أو عبارات، بل على شخصه الإلهي المتجسد، وهنا بالتحديد يجب أن نقول إننا لسنا أمام تاريخ مثل أي تاريخ، بل أمام شهادة شهود حياة جديدة خرجت من حياة قديمة كانت تحت الشريعة القديمة (غلا ٤: ٤ – ٥)، ولكنها جاءت بفداء الذين هم تحت الشريعة، وبالتالي لا يجوز لنا أن نأخذ ما جاءت به الحياة لكي نحكم عليه بأية شريعة، لا سيما شريعة الألفاظ، أي علوم "الألسنة".

عندما تجسد الكلمة، سجدت له كل أدوات التعبير: الشعر – اللغة الإنسانية – النثر – الرسم – الموسيقى.

سجدت عند قدمي الكلمة ... لقد جاء التجسد بما هو ليس في الكتب، أي اتحاد الله بالإنسانية. فلم يعد لدى الإنسان مشكلة البحث عن الله، بل صار الله هو الذي يفتش عن الإنسان. وقد عبَّر القداس الغريغوري عن تلك الحقيقة في صلاة طويلة يكاد يكون عنوانها: "من أجلي":

"خلقتني إنساناً لأنك محب للبشر ...

من أجل تعطفاتك الجزيلة كونتني إذ لم أكن ...

الله الذي يفتش عن الإنسان هو لُب هذه الصلاة:

"أنت الذي خدمت لي الخلاص لَّما خالفت ناموسك".

ولاحظ استعلان المحبة الإلهية:

"كنور حقيقي أشرقت للضالين، وغير العارفين".

لقد حاول كل الهراطقة وضع الله ودخوله عالم الإنسان تحت سيطرة قواعد اللغة الإنسانية، ففي عرف هؤلاء: الإنسان هو الذي يفتش عن الله، ولكن حسب الإنجيل، الله هو الذي يفتش عن الإنسان:

"كراعٍ صالحٍ سعيت في طلب الضال،

كأب حقيقي تعبت معي أنا الذي سقطت".

ولكن تجسد ابن الله يكشف قصور اللغة الإنسانية وقواعد النحو والصرف مهما كانت هذه اللغة: يونانية – عبرانية – قبطية ... إلخ لأننا هنا أمام الاستعلان الأخير لله:

"الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء ... كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة (أي في آخر مراحل استعلانات الله) في ابنه" (عب ١: ١)، ولاحظ أن هذا النص هو البولس الذي يُقرأ في ليلة عيد تجسد الرب.

كيف يجب أن نُخضع اللغة الإنسانية إلى تجسد ابن الله؟

أولاً: ما يؤكد اتحاد الله بالإنسانية في يسوع المسيح ليس هو فكرة أو حدث عارض أو مقالة أو بحث أو ما يولد من عقل البشر. نحن أمام حقيقة أزلية امتدت إلى قلب التاريخ الإنساني، حقيقة سبقت التاريخ نفسه، وسبقت اللغات البشرية، بل وجود الإنسان نفسه، حقيقة تحمل الحياة الإلهية متجسدة في حياة إنسانية، فلم يأت المسيح بأفكار أو شريعة أو تعليم إلاَّ ذلك التعليم الذي يؤكد استعلان الآب فيه، ويؤكد عطية الروح القدس، ومجيء ملكوت الله والتوبة.

ثانياً: لم يكن الإنجيل بشارةً في لفظ أو في كلمات، رغم وجود الألفاظ والكلمات، إلاَّ أنها الإشارات التي تعلن الخبر السار أو البشارة المفرحة.

هنا غاب عن الهراطقة لُب وجوهر الإنجيل، وهو أن العلاقة الجديدة بين الله والإنسان في يسوع المسيح هي علاقة شركة، أنها ليست علاقة تقوم على نصٍ مكتوب، بل النص المكتوب يشير إلى ويعلن العلاقة، فإذا ضاعت العلاقة أو غابت، وظل النص في أيدينا ضاع منا الخبر السار؛ لأن البشارة أو الخبر ليس هو ما يقال لفظاً بل ما يعطى وما يُوهب، وهكذا أعلن رسول الرب إن الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء – أولاد الله، ليس بسماع خبر، بل هم الذين ولدوا ليس من دم ولحم = ولادة بشرية، ولا من مشيئة جسد = ولادة بيولوجية، ولا من مشيئة رجل = زواج، بل من الله (يو ١: ١٢ – ١٣). هؤلاء نالوا هذه الولادة؛ لأن "الكلمة صار جسداً

وحل بيننا، أو سكن فينا، (أي في إنسانيتنا) ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملـــوءً نعمةً وحقاً" (راجع يو ١: ١٤).

ثالثاً: إن الجدل المرير الذي دار ولا يزال يدور حول تفسير هذه الكلمـــات، هو جدل عقيم، جدل أغفل عن جهل أو عن عمد العلاقة الجديدة، علاقـــة الأبنـــاء، وحوَّل هذه العلاقة إلى كلمات أو ألفاظ ...

ماذا يمكن أن نقول: هل الجسد والدم هما جسد حقيقي ودم حقيقي، أم هما فكرة في عقل المتناولين؟ والبحث عقيم؛ لأن السؤال الذي يجب أن نسأله هو: هـــل يؤمن مَن يسأل هذا السؤال بالتجسد؟ إن التجسد حقيقة تفضح محاولات الإنســـان الدائمة لأن يحوِّل المتجسد إلى فكرة أو فكر أو نظرية. ومع ذلك يبقى المتجسد حقيقة تعلو على الفكر وعلى النظريات مهما كانت "حبكة" الألفاظ.

التجسد وزمن الأفعال

الأفعال في اللغة هي الماضي والحاضر والمستقبل، لكن يسوع رب التـــاريخ، الحال دائماً، الكائن في كل زمان ومكان، هو في الماضي في النبوة، هو في الحاضر "ها أنا معكم كل الأيام" (مت ٢٨: ١٩)، هو في المستقبل "ها أن آت ... ماران آثا".

"يسوع المسيح هو هو أمساً و اليوم وإلى الأبد" (عب ١٣: ٨)

فهل أفعال الرب هي أفعال ماض، أم حاضر أم مستقبل؟

الجواب: هي أفعال تعلو على كل أبعاد الزمان إذا كانـــت خاصـــة بعلاقـــة الشركة، بالخلاص من الدينونة، بعطية الروح القدس. وهي خاصة بالمستقبل إذا كانت خاصة بالميراث الأبدي. وهي خاصة بالحاضر إذا كانت تخص عمل الرب يســـوع في النفس والجسد.

التجسد والصلاة

لم نحاول أن نبحث في أساس الصلاة وجوهرها اللاهوتي في عصرنا الحديث، لكن جاء كتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية" وأغلق فجوةً كـــبيرة جـــداً في حياتنـــا

الفكرية، وبالرغم من ذلك، وبالرغم من مرور قرابة نصف قرن على صدور هذا الكتاب لا زلنا نتداول مفردات من قبيل:

- العبادة!!
- العبيد!!

لا توجد "عبادة" في المسيحية الأرثوذكسية. فالكلمة دخلت مع الترجمة العربية. وكلمة "عبد" هي كلمة محبة للرب، وليست كلمة عبودية. لقد اشترانا المسيح من سوق الموت، ولذلك نحن لسنا لأنفسنا (١كور ٦: ١٩ - ٢٠)[١]، ولذلك من "دُعيَ في الرب وهو عبد – حسب العرف والقانون الروماني – فهو حر أو عتيق الرب – حسب الإنجيل"، فلا يوجد عبيد في بشارة الحياة (١ كور ٧: ٢٢)[٢]. أما الحر حسب القانون الروماني، فهو مدعو "عبد للمسيح" والسبب هو "قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس" (١ كور ٧: ٢٣). لقد اشترانا المسيح، ولذلك كم هو غريب على إنجيل المسيح أن نقول إن الرب والابن دفع ثمناً للآب، بينما هو اشترانا (١ بط ١: ١٨ - ٢٠)[٣].

عندما نتكلم عن الصلاة، يجب أن نعرف أننا نصلي للآب في ابنه يسوع المسيح، وأننا نصلي في يسوع الذي هو متحد بطبعنا الإنساني، ولذلك الملائكة تسجد للمسيح، وفيه تسجد لنا (أثناسيوس الكبير ضد الأريوسيين ١: ٤٢ - ٤٣)[٤].

---

(١) "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ... أَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟ لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ".

(٢) لأَنَّ مَنْ دُعِيَ فِي الرَّبِّ وَهُوَ عَبْدٌ فَهُوَ عَتِيقُ الرَّبِّ. كَذَلِكَ أَيْضاً الْحُرُّ الْمَدْعُوُّ هُوَ عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ. قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ فَلاَ تَصِيرُوا عَبِيداً لِلنَّاسِ".

(٣) "عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ. بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ. مَعْرُوفاً سَابِقاً قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ قَدْ أُظْهِرَ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ أَجْلِكُمْ".

(٤) "لأن مجد الله الآب هو: أن يوجد الإنسان الذي كان قد خلق ثم هلك، وهو: أن يحيا الذي مات، وهو: أن يصير الإنسان هيكل الله. ولأن القوات السمائية من ملائكة ورؤساء ملائكة كانت تعبده دائماً، فإنهم الآن أيضاً يسجدون للرب باسم يسوع، فهذه النعمة وهذا التمجيد العالي إنما هو لنا، وأنه بالرغم من أنه صار إنساناً وهو ابن الله فإنه يُعبد. لذلك لن تدهش القوات السمائية حينما ترانا نحن جميعاً – المتحدين معه في نفس الجسد – داخلين إلى مناطقهم (السمائية). وهذا قطعاً – لم يكن ممكناً أن يحدث بأية طريقة أخرى، اللهم إلا إذ كان هذا الذي كان

الصلاة هي عودتنا إلى حياة الشركة، هي الاستقرار الدائم في حضـــن الآب، هي خدمة الآب لنا في الكاهن العظيم يسوع المسيح. وعنـــدما نقـــول في القـــداس الغريغوري: "أنت الذي خدمت لي الخلاص لمَّا خالفت ناموسك"، فذلك ينبهنا إلى أن الليتورجية هي خدمة الله نفسه لنا، وأن الكاهن العظيم يسوع المسيح يأتي لكي يخدمنا نحن ويوزِّع حياته: جسده ودمه علينا. هذه هي الخدمة الحقيقية. فهو الـــذي غســـل أرجل التلاميذ .. ولكنه لا زال يغسل دنس نفوسنا وأجسادنا.

هذا هو أحد جوانب الخلاص.

النور الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم نقول عنه: "يا ربي يسوع المسيح المولود من الآب قبل كل الدهور، الذي تجسد ...أنر عيون قلوبنا وأنعم علينا ببركـــة الميلاد البتولي، وأعطنا يقظة لكي نصنع ما يرضيك" (البركة من عيد الميلاد إلى عيـــد الغطاس).

وفي بركة عيد الغطاس نقول: "يا يسوع المسيح الابن الوحيـــد وكلمـــة الله الآب، الذي تعمَّد في الأردن ... وطهَّر جميع المسكونة، طهِّرنا من كل فكـــر رديء وكل سيرة دنسة وكل حواس مملوءة عيباً".

هكذا تكون خدمة الليتورجية ... الرب يخدمنا، ونحن نقبل هذه الخدمة بمـــا يليق من خدمة هي منه وعائدة إليه.

"البكر بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)

لا زلت أذكر تلك النظرة القاسية التي رمقني بها أحد خدام لاهوت العصـــر

موجوداً في صورة الله، قد أتخذ لنفسه صورة العبد، وأذل ذاته. راضياً بأن يصل جسده حتى إلى الموت.

أما عبادة الرب الذي صار في الجسد البشرى، ودعي يسوع، والإيمان به كابن الله – والتعرف على الآب بواسطته، فهو أمر جلي، كما قلنا، أنه ليس اللوغوس بسبب كونه لوغوس هو الذي حصل على مثل هذه النعمة، بل نحن. لأنه بسبب علاقتنا بجسده، فقد صرنا نحن أيضاً هيكل الله – وتبعاً لذلك قد جعلنا أبناء الله. وذلك حتى يعبد الرب فينا أيضاً. والذين يبصروننا يعلنون – كما قال الرسول "أن الله بالحقيقة فيكم" (١كو١٤:٢٥). وكما قال يوحنا أيضاً في إنجيله "وكل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله" (يو١:١٢). وكما كتب في رسالته "بهذا نعرف أنه يسكن فينا من روحه الذي أعطاه لنا" (١يو٣:٢٤)" (ضد الأريوسيين ١: ٤٢، ٤٣ – مركز دراسات الآباء – ديسمبر ١٩٨٤ – ص ٨٢ – ٨٣).

الوسيط عندما سألته عن معنى كلمات الرسول في رو ٨: ٢٩، فقال لي: هو أنت يا فلعوص أخ للمسيح؟ وكان القمص ميخائيل إبراهيم الشيخ العظيم واقفاً يسمع، فقال في صوت ملؤه الحزم والشفقة: مفيش حد فلعوص في المسيح، الرب يسوع هو أخ لكل إنسان بسبب تجسده. وقال لي: أوعى تكون زعلت، فقلت له: لا. لكن لأول مرة آخد بالي من أن أنا أخ المسيح، فأجاب الخادم وقال: يا قدس أبونا الأخ ده هيتكبر ومحدش هيعرف يكلمه. فقال الأب الكبير: يتكبر على أيه، كلنا أخوة للرب ...

للأسف الشديد، لا زالت هذه البشارة غريبة على آذان مستعدة لأنْ تقول إن يسوع ربٌ، وهذا عظيم – يسوع مخلص، وهذا مطلوب، ولكن يسوع هو أيضاً الأخ البكر لأننا وُلدنا من الله ليس مثل ولادته، بل لأنه أتي بهذه الولادة.

أيها البكر ...
أحفظ الكنيسة من كل تعليم غريب
لقد قبلت أن تكون الأخ البكر...
أعطنا أن نقبل أن نكون إخوة لك في ذات المحبة.
أيها البكر ...
لقد فتحت لنا أحضان الآب، فافتح قلوبنا كلٍ للآخر.

كل عام وأنتم بخير
دكتور
جورج حبيب بباوي
عيد تجسد الابن الكلمة
٧ يناير ٢٠١٠